أهمية دمشق ومركزها الاقتصادي

حتى نهاية القرن السادس الهجري

الدكتور محمد زيود

مكانة دمشق وأهميتها :

تحتل بلاد الشام مكانة فريدة في تاريخ العالم ، وربما كان إسهامها في التقدم البشري يفوق أي بلد آخر . وتأتي أهميتها من موقعها الاستراتيجي بين القارات القديمة الثلاث كجسر تنتقل عبره التأثيرات الحضارية ، فضلاً عن انتقال البضائع التجارية . وقد سجل تاريخها على مر العصور دوراً ريادياً في التجارة القديمة ، فلمع الفينيقيون وتجار البتراء وتدمر ودمشق وحلب ، وقدموا صفحات مضيئة ، وكان لهم دور لا ينكر عبر مراحل التاريخ . وإذا كان الوطن العربي يقع في موقع القلب من العالم ، فإن بلاد الشام ، ودمشق خاصة ، تعد سرّة هذا العالم ، ومركزاً للإشعاع الحضاري وسوقاً للأعمال التجارية منها خاصة ، وهذا ما ساعد بلاد الشام ولؤلؤتها دمشق على التقدم والتطور في العصور التاريخية ، حتى لقد عدت من أهم المدن الحضارية ، وسما دورها ، خاصة في العصر الأموي ، لتصبح عاصمة لأكبر دولة في العالم ، وأهم المراكز الاقتصادية العالمية .

الري والزراعة فيها :

لقد ساعدت دمشق على القيام بهذا الدور الريادي الاقتصادي ، والتجاري خاصة ، أهميتها الزراعية ، كمركز زراعي فريد ، ونموذج متطور متقدم في الري ووسائله ، ولها في هذا المجال خصائص امتازت بها على غيرها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من المدن ، فهي كثيرة الأنهار والمياه والينابيع ، وبخاصة القنوات ، التي تدل على براعة الدمشقيين في توزيع المياه في مسارب عديدة ، ووفق نظام مدروس أحكم ضبطه لري الأرض الظمأى بواسطة الطالع الموزع في فترات موقوتة محددة ومعلومة[١] ، وقد ذكرت المصادر هذا النظام ووصفته بأنه جعل من دمشق وغوطتها جنة الأرض ، وهذا كله ينم عن الاهتمام الكبير بالري وتأمين وسائله .

ذكر ابن عساكر القُنِيّ بدمشق فقال : « وبدمشق قنيّ لها أوقاف معلومة مبينة ، وأكثرها ليس لها أوقاف ، ولكن يجري عليها من المسلمين اسعاف ، فيحصل بجملتها الانتفاع ، وتطيب بمجاورتها الاصقاع ، وأنا ذاكرها ومثبت عددها ليعرفها من أحب أن يعدّدها » وعد منها مئة ونيفاً وثلاثين قناة . وتدل المصطلحات الكثيرة للري التي توردها المصادر عن دمشق في هذا المجال ، على الاستعمال الكبير لوسائله في توزيع المياه المثالي في دمشق عبر العصور . وقد ساعدها هذا كله على أن تكون بلداً زراعياً من الدرجة الأولى ، لا في الشام فحسب ، بل في أرجاء المعمورة كافة ، ولهذا عدت دمشق من الجنان[٢] ووصف كتاب العرب القدامى والمتأخرون الغوطة ودمشق ونهرها ، نثراً وشعراً . ولا بد لنا من استقصاء ما كتبه هؤلاء

---

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ج٢ ص١٥٢/١٥٤ .
محمد حسين العطار : علم المياه الجارية أو رسالة في علم المياه : ص١٨/٩/٢٠/٨٠/٨١ دمشق – ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٤٦٤ – نيكيتا اليسيف : الحياة الاقتصادية في دمشق في عصر ابن عساكر مقال في ذكرى مرور ٩٠٠ سنة على ولادة ابن عساكر دمشق ١٩٧٩ – ص٣٠٦ – ٣٠٧ .

(٢) ابن عساكر : المصدر السابق ص١٥٤/١٦٣ – العطار : علم المياه ص٨٠/١٠١/١٠٢/١١٤ – الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص٤٥ – ٤٨ – شيخ الربوة : نخبة الدهر وعجائب البر والبحر ص١٩٤ – القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص١٩١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حتى نصل إلى تصور حي لما كانت عليه دمشق وغوطتها وزراعتها وتقدم أسلوب ريها وتطوره عبر مراحل تاريخها . فدمشق نعمة من نعم الله على الأرض لعباده ، وهي من أخصب مناطق العالم في بعض زراعاتها ، ولهذا كانت مثار اعجاب الرحالة والمؤرخين فانبهروا بها ، وأسهبوا في وصفها[٣] فالمهلبي يصف غوطة دمشق بقوله : « وطول الغوطة ثلاثون ميلاً ، وعرضها خمسة عشر ميلاً ، ولا تكاد الشمس أن تصل إلى أكثر أرضها لكثرة الشجر ، والماء يخترق في جميع هذه الغوطة فإنها مقسومة للضياع متوزعة للشرب... الخ ». ويصفها المقدسي بأنها « بلد قد خرقته الأنهار، وأحدقت به الأشجار ، وكثرت به الثمار ، مع رخص أسعار ، لا ترى أحسن من حماماتها ولا أعجب من فواراتها .. وهي جنة الدنيا ... » . ويقول عنها ياقوت بأنها « قصبة الشام ، وهي جنة الأرض بلا خلاف ، لحسن عمارة ، ونضارة بقعة ، وكثرة فاكهة ، ونزاهة رقعة ، وكثرة مياه . ومن خصائصها ، التي لم أر في بلد آخر مثلها ، كثرة الأنهار بها وجريان الماء في قنواتها » . وقال الخوارزمي : « جنان الدنيا أربع : غوطة دمشق ، وصغد سمرقند ، وشعب بوان ، وجزيرة الأبلة ، وقد رأيتها كلها ، وأفضلها دمشق .. » .

بُقولها :

تعد دمشق مع غوطتها من أشهر المناطق في زراعة البقول والخضار ، وكل قرية من قراها أو مجموعة من القرى مختصة بزراعة معينة لا تنازعها

---

(٣) عن وصف الغوطة ودمشق يمكن العودة إلى :
المهلبي : المسالك والممالك ، مقال : ص٦٢/٦٥ « صلاح الدين المنجد ـ مجلة معهد المخطوطات العربية مجلد ٤ ج١ سنة ١٩٥٨ » ـ المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص١٥١/١٥٥/١٨٠ ـ أبي الفداء : تقويم البلدان ص٣٧٥ ـ ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٤٦٤ نقلاً عن الخوارزمي . ابن الفقيه : البلدان : ص١٠٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

منطقة ثانية . فهذه أرض الصالحية وكفر سوسة والقابون اشتركت بانتاج البقول والخضار ، وعرفت حرستا وما حولها بالانسيون والسمسم ، ودوما ببطيخها الأصفر ، والغوطة هي مصدر غذاء دمشق بالبقول ، وما زاد منها يصدر إلى المناطق المجاورة ، وأهمها القلقاس ، والكرنب والشوندر ، والجزر ، واللفت ، والفجل ، والبصل ، والثوم وغيرها(٤) . واشتهرت دمشق بزراعة الهليون ولم يكن معروفاً في بغداد في العصر العباسي . وعندما وصفه أحد الشعراء للخليفة المستكفي قام هذا وكاتب الأخشيد فقام بإرساله له من دمشق(٥) .

محاصيلها الزراعية الصناعية :

وأما المحاصيل الزراعية الصناعية فهي كثيرة ، وأهمها القطن والقنب والسمسم والورد ، ثم النيل والترمس والزعفران ، وقد زرعت بكثرة في دمشق(٦) وغوطتها ، علاوة على أنواع ممتازة وفريدة من الورد والأزهار والرياحين ، أكثر في وصفها الشعراء ، نذكر منها الورد والنرجس والبنفسج والياسمين والنسرين والاسي ، والقرنفل والشقائق والاقحوان . وكانت زراعة الورد منذ القديم تلقى العناية والاهتمام . وعرفت المزة بأزهارها وعطرها . واختصت دمشق بصنع الروائح العطرية وبماء الورد ، فنالت بذلك شهرة كبيرة منذ العصور الإسلامية الأولى . وصنع فيها ، وبخاصة في غوطتها

---

(٤) أبو البقاء البدري : نزهة الأنام في محاسن أهل الشام ص٢٩٠/٢٩٥/٢٩٦/٢٩٧ ـ ابن العديم : بغية الطلب ورقة ٤٣ و ـ النويري : نهاية الأرب ج١١ ص٧٨ ـ القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٨٧ .

(٥) ـ المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج٢ ص٣٨٩ .

(٦) أبو البقاء : ص٦١/٣٠٨ ـ القزويني : ص١١٧ ـ كرد علي : خطط الشام ج٤ ص١٨٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبمتنزّه المزة ، ماء الورد والعطر الذي كان يصدر إلى كثير من بقاع العالم ، فيحمل إلى البلاد الجنوبية كالحجاز ، وما وراء ذلك ، وكذلك إلى السند والهند والصين ، وكان يسمى هناك الزهر(٧) . ويحدثنا القزويني وغيره عن الغوطة وأزهارها الأنيقة . لكن ما كتبه أبو البقاء البدري أفضل ما كتب عن الورد والأزهار وأهميتها ، كما أوضح شيخ الربوة طريقة استخراج العطر من الأزهار ، وبين أن زراعتها وصناعتها كانت رابحة ورائجة ، وأن مردودها كان عظيماً جداً(٨) .

أشجارها المثمرة :

ووصفت الشام بأنها بلاد الفواكه والأعناب ، وزرع الزيتون في غوطة دمشق ، وفي كثير من قراها ، كحرستا ، ودوما ، والمزة ، وكفر سوسة ، ويلدا ، وببيلا ، وحرش الريحانية . ويورد أبو البقاء أن بقرية كفر سوسة معصرة زيت وأشجار زيتون تعود لزمن عيسى عليه السلام . وذكر الثعالبي أن زيت الشام يضرب به المثل في الجودة والنظافة ، وإنما قيل له الزيت الركابي لأنه يحمل على الإبل في الشام ، وهي أكثر بلاد الله زيتوناً . وكانت الشام مصدراً كبيراً للزيت ، ترسله بطريق القوافل إلى مصر والجزيرة العربية وبطريق الفرات إلى العراق والمناطق الشرقية(٩) . ولزراعة الكرمة شهرة

---

(٧) الخوارزمي : مفيد العلوم ومبيد الهموم ص١٢٤ – أبو الفداء : تقويم ص٣٥٣ – المهلبي : المصدر السابق والصفحة – القلقشندي : ج٤ ص٨٧ – ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٢٨٢/٢٨٦ .

(٨) المقدسي : ص١٥١/١٥٦ – ابن جبير : رحلته : ص٢٤٨ – شيخ الربوة : نخبة ص١٩٥/١٩٨ – القزويني : ص٢٢٣ – أبو البقاء : ص١٠٤ .

(٩) ابن عساكر : ج١ ص٢٠٣ – الأزدي : فتوح الشام ص١١٣ – أبو البقاء : ص٢١٢/٢١٣ ، ٢٢٣ – ابن الفقيه : البلدان : ص١٣٣ – الاصطخري : المسالك والممالك ص٥٨ ناصر خسرو : ص٢٠ – لومبار : الإسلام ص١٩٤/١٩٥ – المقدسي : ص ١١٢/١٧٤/١٨١ – ابن حوقل: صورة الأرض: ص ١١٣/١٦٦ الثعالبي: ثمار القلوب ص٥٣٢، مصر ١٩٦٥.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خاصة بين الأشجار المثمرة ، انتشرت في قراها ، فشهرت داريا بعنبها الزيني والداراني ، ودوما بعنبها الأحمر اللذيذ . ويعد أبو البقاء خمسين صنفاً من أنواع العنب في قرى الغوطة ، من أشهرها الزيني ، والبلدي ، والداراني ، والحلواني ، والأسود ، وعنب الشيخ ، وأصبع الست ... الخ . وكان الزبيب الذي يصنع من العنب يلي الزيت في قائمة الصادرات الشامية ، وقد وردت الإشارة إليه في قائمة المقدسي ثلاث مرات ، ومن ثلاثة مواقع ، هي فلسطين(١٠) وبيت المقدس ودمشق . وأكثر صادراته كانت إلى مصر والعراق ، ويؤيد ذلك ما ورد كثيراً في ثنايا الشعر الجاهلي القديم ، من ذكر لصناعة الخمر وشهرة الشام بها .

ولتفاح دمشق شهرة كبيرة ، فقد زرع فيها منذ القديم ، وجادت به قرى غوطتها ، وكان يحمل منها إلى مصر وحران في العراق وما جاورهما . ويذكر أبو البقاء أن من محاسن الشام تفاحها ، وعدّ منه أكثر من ثلاثة وعشرين نوعاً ، وكان يوجد بكثرة في بيوت الأثرياء وميسوري الحال في كل من مصر والعراق(١١) .

كذلك اشتهرت دمشق وغوطتها بالتين ، وجادت زراعته في منطقة برزة ، وعدّ أبو البقاء ستة عشر صنفاً من أنواعه ، وبيّن بعض فوائده الكثيرة ، ولا بد أنه صدر كذلك إلى مصر والعراق .

---

(١٠) المقدسي : ص١٦٣/١٦٤/١٧٢/١٧٣/١٨٠ ـ ابن حوقل : ص١١٣/١١٨/١٦٦/١٦٩ ابن العديم : بغية الطلب ورقة ٢٥ظ ـ أبو البقاء : ص٢٢٣ .

(١١) الثعالبي : لطائف المعارف ص٩٥/١٥٦ ، وثمار القلوب : ص١٨٦ ـ ياقوت : معجم ج٢ ص٢٦٥ ـ القزويني : آثار ص٢٠٦ ـ أبو البقاء ص٢٠١ ـ المسعودي : مروج ج٤ ص٣٠٣ ـ المقدسي : ص١٧٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأما المشمش فزراعته قديمة في الشام ، ومن أشهر مناطقها الغوطة ، وهو منقطع النظير بنكهته ومائيته . وأهميته في دمشق تعود لعصره واستخراج عصير المشمش . كما يستخرج منه القمردين بعد تجفيفه ، وينقل إلى مصر والسودان وسائر بلاد العرب[١٢] . ولذلك يعد من أفضل أنواع الأشجار المثمرة المغلّة .

وكثرت في دمشق وغوطتها زراعة الرمان ، وإليها ينسب الرمان الشويكي ، وكذلك الإجّاص (الكمثرى) والسفرجل ، وكان الكمثرى من الفواكه النادرة والطيبة ، وينقل إلى مصر وغيرها[١٣] .

وزرع بدمشق كذلك الجوز واللوز والخوخ والبندق ، كما عد الخرنوب من الثمار التي صدرت إلى مصر ، وقد أشاد به الشريف الإدريسي . وهذا فضلاً عن منتجات غذائية عديدة تصدر من الشام إلى العراق ، مثل الدقيق ، وبخاصة الخضار التي امتازت بانتاجها دمشق[١٤] وغوطتها ، وقيل إنها كانت تصل طازجة إلى قصور الخلفاء في بغداد .

وعرفت دمشق زراعة السماق ، واستعمل فيها لدباغة الجلود .

صناعاتها وعوامل تقدمها :

ثمة عوامل كثيرة أثرت في تقدم الصناعة في بلاد الشام ، منها وجود

---

(١٢) ابن حوقل : المسالك ص١١٤/١١٦ ـ ناصر خسرو : سفرنامه : ص٤٥/٤٧/٤٨/٧٠ المقدسي : ص١٦١/١٨١ ـ القلقشندي : ج٤ ص٨٧ .

(١٣) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ص ١١٥ الجزء الأول من القسم الخاص بمصر ـ أبو البقاء: ص ١٩٥/ ٢١٠/ ٢١٤/ ٢١٥/ ٢٤٩/ ٢٥٠.

(١٤) المقدسي : ص١٦٦/١٧٨/١٨٠ ـ أبو الفداء : تقويم ص٢٤٧ ـ ابن العديم : بغية ورقة ١٦٦ ظ١٦٧ و١٦٨ظ ـ أبو البقاء : ص٣٣٥ ـ اليعقوبي : البلدان ص١٨ الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ص١٥٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المواد الأولية ، كالحديد الذي كان يصهر محلياً ، وخاصة في دمشق وحلب . ولا يستبعد أن تكون أسلحة دمشق ذائعة الشهرة ، وخاصة السيوف الدمشقية ، والتي فقدنا اليوم سر صناعتها ، مصنوعة منه . كما وجدت الفضة ، والذهب ، وبعض المواد غير المعدنية ، كالحجارة الكلسية ، والحوارية ، والرملية ، والرخام السماقي – أفضل مقالعها قرب حلب – ثم الحجر المزي ، وهو ضارب إلى الصفرة ، استخرج من مقلع المزة قرب دمشق ، ثم مقالع معربا في القلمون(١٥) . وكان للأيدي الدمشقية الخبيرة ، التي استخدمت هذه المواد الأولية بجدارة ، أكبر الأثر في تحويلها إلى صناعات نافعة ومفيدة . وقد تحولت بلاد الشام ، بسبب هذه الاستعدادات الاقتصادية ، إلى مناطق صناعية اختصت بها .

واشتهرت دمشق بصناعة الديباج ، والأنسجة ، والأسلحة ، وخاصة السيوف ، وكذلك بصناعة الفضة ، وترصيع الخشب . ونالت المنسوجات الدمشقية شهرة كبيرة ، وقدر انتاجها عالياً(١٦) في أوربة وقدمت خلعاً وهدايا في مناسبات عديدة . وأشادت المصادر اللاحقة بمنسوجات دمشق ، وأكدت تصديرها إلى جهات مختلفة من العالم .

والتقدم الزراعي قاد بالضرورة إلى تطور صناعي في مجال الصناعات

---

(١٥) ابن عساكر : ج٢ ص٥٨ – ابن شداد : الاعلاق الخطيرة – القسم الخاص بدمشق ج١ ق١ ص١٥٢/١٥٣ – المقدسي : ص١٧٤/١٨٤ – الإدريسي : ج١ ص ٣٤٧– ٣٧٨– ناصر خسرو: ص ٤٨/٤٩– الدمشقي: نخبة الدهر: ص ٢٠٩– الغزي: نهر الذهب ج١ ص ٤٣/١٠٣.

(١٦) المقدسي : ص١٨٠ – ابن شبة : تاريخ المدينة المنورة ج٣ ص٨٢٨/٨٣٥ الإدريسي : ص٣٦٩ – البلاذري : فتوح البلدان ص١٣١ – كردعلي : خطط ج٤ ص٢٢٤ محمد زيود : الحياة الاقتصادية في بلاد الشام منذ العصر الطولوني وحتى نهاية العصر الفاطمي ص٢٧٦ ، دمشق ١٩٨٧ ، مخطوطة جامعة دمشق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الزراعية ، ذلك بأن أهالي الشام ودمشق استخدموا وسائل متنوعة لحفظ محصولاتهم ، وتحويلها إلى غذاء نافع وضروري عند الحاجة ، إما بتجفيفها ، كما هو الحال مع التين والزبيب والرمان والمشمش ، أو بخلطها مع العسل كما هو الحال مع التفاح(١٧) . وأقيمت معاصر السمسم والزيتون لاستخراج السيرج والزيت . وصنع الفلاحون في غوطة دمشق المربيات من المشمش والخوخ وغيرهما ، وصنعوا الدبس والزبيب والنبيذ من العنب ، والزبد والقشدة من ألبان بقرهم ومواشيهم . وبالجملة ، فقد كان في الغوطة صناعات زراعية صدرت الى البلاد البعيدة(١٨) ، فضلاً عن إمداد دمشق بما تحتاجه من هذه المواد الزراعية .

صناعة السكر :

ومن الصناعات الدمشقية الشهيرة صناعة السكر ، وعلى الرغم من أن السكّر ليس اختراعاً عربياً، فإنه كان لهم الفضل الكبير في تطوير صناعته ونشره ، وكانت طرابلس ، ودمشق بوجه خاص ، تموّنان أوربا حتى أواخر العصور الوسطى بالسكر بجميع أنواعه المعروفة(١٩) وغدت منتوجات السكر والأشربة الدمشقية تصدر للغرب والشرق حتى السند .

---

(١٧) الدمشقي : الإشارة إلى محاسن التجارة ص٣٤ ـ التنوخي : نشوار المحاضرة ج٢ ص١٧٤ .

(١٨) المقدسي : ص١٥٦/١٥٩/١٨٠/١٨١ ـ موريس لومبار : الإسلام في فجر عظمته ص٣٦/١٥٦/١٩٦ .

(١٩) لومبار : ص١٩٥ ـ آدم متز : الحضارة الإسلامية ج٢ ص٣٠٢ ـ الحمارنة : زراعة قصب السكر وصناعته أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ص٥١٥/٥١٩ حتي : تاريخ سورية ولبنان ج٢ ص٢٥٥ ـ لبنان في التاريخ ص٤١٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الطواحين :

ومما يدل على تقدم الصناعات الزراعية وجود المطاحن بكثرة في دمشق وضواحيها . ويذكر ابن عساكر ثلاثاً منها داخل السور ، وهي طاحونة اليسار ، وطاحونة الثقفيين وهي طاحونة القلعة ، وطاحونة السجن ، وتسعاً منها خارج المدينة وهي الرحا الإحدى عشرية (خارج باب شرقي) ، ورحا الاشنان ، والرحى البرمكية ، ورحا ابن أبي الحديد بالقرب من دير السروجي ، وطاحونة الدباغة خارج باب توما ، والرحا الزبيرية والسميرية ، ورحا المنشرة في غرب القلعة ، والرحا النورية عند الرباط الذي أوقفه نور الدين ، وطاحونة الأشعرية في دمشق[٢٠] . وكانت الطواحين تعمل ، دون انقطاع ، في طحن الحبوب ، وعصر الزيتون واستخراج الزيت ، وعصر القصب واستخراج السكر منه . أما معاصر الزيتون فربما كانت أكثر الأنواع الشائعة ، لانتشار زراعة الزيتون وتعدد مناطق زراعته . فابن عساكر يذكر معصرتين للزيت في دمشق ، ويروي أبو البقاء أن أقدم معاصره كانت في كفر سوسة .

الصابون :

ومن الصناعات الزراعية صناعة الصابون ، وكانت من أنجح الصناعات القديمة ، وكان للدمشقيين شهرة واسعة في صناعة الصابون ، والاعتماد عليه في حياتهم اليومية الخاصة . ويستدل على ذلك من كثرة الحمامات في دمشق ، لوفرة مائها ، وجودة صناعة الصابون فيها ، فضلاً عما امتازت به دمشق من صناعة للعطور الفاخرة ، وكلها من مستلزمات الحمام . وهذا يقدم لنا صورة عن التقدم الحضاري لهذه المدينة العريقة .

(٢٠) ابن عساكر : ج٢ ص٦٦/٢٥٥/٢٩٨ ـ ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص٥/٧ أبو البقاء : ص٢١٢/٢١٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومما يدلنا أيضاً على كثرة حمامات دمشق اهتمام ابن عساكر بها ، وبتنوعها وتوافرها في جميع جهات دمشق وحاراتها ، ويعد منها سبعة وخمسين حماماً[٢١] . وكانت الأنواع الجيدة من الصابون تصدر إلى ممالك الروم والعراق وديار بكر وإلى مصر أيضاً .

الصناعات المعدنية :

أما الصناعات المعدنية فقد تقدمت كثيراً في بلاد الشام ، فصنعت في دمشق كميات كبيرة من الأوعية النحاسية والمصنوعات الحديدية الأخرى ، التي اشتهرت حتى في أوربة . وكان هذا الانتاج يباع محلياً ، ويصدر جزء منه . وقد أعجبت ناصر خسرو (وهو من الرحالة والجغرافيين) وأدهشته صناعة القدور النحاسية المصنوعة بدمشق ، والتي شاهدها بكثرة في مصر ، وامتازت بالسعة وكانت من الطلاوة بحيث تظنها من الذهب الخالص[٢٢] .

وأما صناعة السيوف فقد كان للشام ، ودمشق خاصة ، شهرة ملحوظة بصناعتها وانتاجها وتصديرها ، وغدت سيوف دمشق من أجمل وأفضل ما كان يصنع في بلاد الشام . وابتداء من القرن العاشر الميلادي كانت صناعة السيوف تتم في دمشق وفق أسلوب خاص أطلق عليه اسم الدمشقية ، وبلغ لمعانها حداً كبيراً من اتقان الصنعة بحيث يمكن أن يتخذ

---

(٢١) ابن عساكر : ج٢ ص١٦٣/٢٥٦ ـ صلاح الدين المنجد : خطط دمشق ص٢/٣/٨ ابن حوقل : صورة الأرض ص١٥٩/١٦٥ ـ ابن شداد : الأعلاق/القسم الخاص بدمشق ص٢٩١ .

(٢٢) ناصر خسرو : ص١٦٠/١٠٤ ـ المقدسي ص١٨٠/١٨١ ـ ابن شداد : ج١ ق١ ص١٥٢ـ راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية في العصر الفاطمي ص١٨٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الإنسان السيف الدمشقي كمرآة لإصلاح هندامه[٢٣] . ولقد انتقلت السيوف الدمشقية إلى الأندلس ، واهتم الخلفاء هناك بتشجيع صناعتها في طليطلة وغيرها ، وكانت المادة الأساسية التي تصنع منها هذه السيوف الدمشقية هي الفولاذ « الجوهر »[٢٤] الدمشقي وتحدث عنه المؤرخون ، وقارنوا بينه وبين الفولاذ الهندي . وحافظت دمشق على هذه الصناعة حتى نهاية القرن الرابع عشر ، إذ تعرضت بلاد الشام للغزو التتري ، ونقل تيمورلنك جميع العمال الفنيين من الشام ، ومنهم صانعو السيوف الدمشقية ، إلى سمرقند ، قاصداً إحياء هذه الصناعة وغيرها في بلاده ، وإضعافها في بلاد الشام .

الصناعات الخشبية :

ومن الصناعات التي اشتهرت بها دمشق الصناعات الخشبية ، ومنها صناعة الصناديق من خشب الجوز . وكانت هذه الصناديق تبقى طويلاً دون أن تتشقق ، أو تتآكل ، أو تبلى . وتدل نقوشها المحفورة عليها على ذوق جميل لدى النجار الدمشقي . ومن الأمور التي تبين رقي فن النجارة في بلاد الشام ما يسمى بالحلقات في القصور والقاعات القديمة ، ففيها من الشواهد الكثير مما يشهد للنجارين بالذوق السليم والصنعة المتقدمة . ولقد عثر في دمشق على نماذج تعد من روائع الصناعات الخشبية والحفر على الخشب ،

---

(٢٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج١ ص٢١١ .
الكندي : رسالة الكندي السيوف وأجناسها طبعة ليدن نشرة كلية الفنون/جامعة القاهرة مجلد ١٤ ج٢ ص١ ـ ٣٦ ـ مقال لعبد الرحمن زكي ١٩٥٥/١٩٥٦ .

(٢٤) ابن الأخوة : معالم القربة ص٨٠ ـ البيروني : الجماهر في معرفة الجواهر ص٢٤٧/٢٥٧ ـ أحمد يوسف الحسن : صناعة الفولاذ الدمشقي في التاريخ العربي محاضرة أسبوع العلم الثالث عشر دمشق ١٩٧٢ ص١١١ ـ وانظر لنفس المؤلف مدخل إلى تاريخ التكنولوجيا العربية مجلة عاديات حلب ١٩٧٥ ص١٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومنها جزء من حاجز مقصورة مسجد باب المصلى ويرجع إلى عهد تتش ، وقد قام وزيره بترميمه ، وهو الآن محفوظ بمتحف دمشق . كما قام وزير تتش بإصلاح آخر للمقصورتين الجديدة والقديمة . ومن أهم التحف الخشبية القطعة المحفوظة في دار الآثار الوطنية بدمشق . وقد وصفها الأمير جعفر الحسني في دليله الذي وضعه لمحتويات هذه الدار وقال عنها إنها آية في الجمال ، ووجدت في جامع مصلى العيدين « جامع باب المصلى »[٢٥] في دمشق .

صناعة الزجاج :

كما اشتهرت الشام بصناعة الزجاج منذ القديم ، وتطورت صناعته عبر العصور ، وازدادت أهميته في العصر الإسلامي ، وتقدمت صناعته في دمشق ، فاشتهر زجاجها في أوربة . واستمرت دمشق وغيرها من المدن الشامية تحتفظ بدورها القيادي في هذه الصناعة طوال العصور الإسلامية . ومنذ القرن الثاني للهجرة أخذت دمشق تصدّر الزجاج المطلي بالمينا إلى الأقطار المجاورة ، فصدّر إلى الفسطاط . وكان الزجاج الدمشقي يتخذ للزخرفة والزينة ، وتصنع منه الكؤوس والأواني على اختلاف أنواعها وأغراضها . وقد تسابق تجار أوربة على استيراد الزجاج من دمشق ، من دنان وقوارير ومصابيح وغيرها ، من المكسوة بطلاء المينا الفاخر الملون ، ووجدت لها أسواقاً رابحة في أوربة لجمال صنعها وكمال تصميمها[٢٦] .

---

(٢٥) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين : ص٢١٨ – وانظر دليل مختصر لمقتنيات دار الآثار الوطنية بدمشق تأليف الأمير جعفر الحسني : ص١٠٣/١٠٤ – اللوحة رقم (١٠) شكل ٢/١ – كردعلي : ج٤ ص٢٠٨/٢٠٩/٢٢٩ .

(٢٦) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ج٤ ص ٣٩٦، ٣٩٧– لومبار: ص ٢١٩/ ٢٢٠.

زكي حسن : كنوز ص١٧٦/١٨١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الورق :

أما صناعة الورق ، فقد أسست معامله في دمشق بعد تأسيس معمل ورق بغداد في سنة ١٧٨هـ/٧٩٤م ، ثم تتابعت بعد ذلك إقامة المعامل الكثيرة في معظم المدن الشامية . وامتازت دمشق بمعامل ورقها ، وذاعت شهرتها بهذه الصناعة ، وقد وصف ورقها مؤرخو اليونان ، ومدح ورقها المؤرخون العرب والمسلمون . وأثنوا على محاسن ورق دمشق وجماله ، فقال أبو البقاء البدري : « وفيها تعمل صناعة القرطاس بحسن صقاله ونقي أوصاله » . ونظراً لرقي صناعة الورق وجودته في دمشق وطرابلس وتفضيله على الورق المصنوع في سمرقند[٢٧] ، فقد كانت تجارته رابحة ، وكان يصدر بكميات كبيرة إلى مصر وغيرها من المناطق ، ولقد رافق تقدم صناعة الورق والوراقة رواج عمل الوراقين والخطاطين ، ومهنة « المذهِّب » ، وهي تلي الخطاطين في المرتبة . كما كثر الدلالون ممن اقتصرت أعمالهم على البحث عن الكتب النادرة وشرائها ومن ثم بيعها .

التجارة والأسواق :

مما تقدم يتضح أن دمشق كانت من المناطق الهامة في العالم اقتصادياً، وفي العصر الإسلامي ظهرت عوامل كثيرة أثرت في حركة التجارة وساهمت في نشاطها[٢٨]، وتقدمها.

= ديماند : الفنون الإسلامية ، ص٢٣٠/٢٤٧ – عمر رضا كحالة : الفنون الجميلة ، ص٢٤٧ .

(٢٧) ناصر خسرو : ص٤٨ – المقدسي : ص١٨٠/١٨١ – أبو البقاء البدري : نزهة ص٣٦٣ – القلقشندي : ج٢ ص٤٨٧ وج٦ ص١٨٨/١٩٤ – لومبار : الإسلام ص٢٢٤ .

(٢٨) هناك عوامل كثيرة أثرت في التجارة إيجاباً بعد قيام الدولة العربية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كانت التجارة في دمشق تتمركز في الأسواق التجارية ، التي كانت بمثابة قلب المدينة ، وتمتدّ على طول الشوارع من الجانبين . كانت الأسواق في معظم مدن الشام ، ودمشق خاصة ، لا تخلو من جامع ، ومن حمام ، وسبيل ماء أيضاً ، ولها ، كما للطرق ، أوقاف خاصة لاصلاحها[٢٩] . وقد أكد ابن عساكر وجود المساجد والحمامات والقني والسبل في هذه الأسواق في معرض حديثه عن دمشق ومرافقها العامة ، وكان المحتسب يقوم بالإشراف على الأسواق وتحديد أماكنها وتخصصها ومراقبة سير أعمالها والتثبت من أن المعاملات في السوق تتم حسب المبادئ والقيم الإسلامية[٣٠] .

وفي العصر الإسلامي كانت الأسواق تتمركز قرب المسجد الجامع وعلى نسبة اتصالها به وظيفيّاً فأقربها للجوامع أسواق الشماعين لحاجة الجوامع الى الإضاءة ليلاً ، ثم سوق العطارين والطيبيين باعة البخور ، وذلك للتقطير والتبخير بالجوامع ، ثم أسواق القباقبية لوجوب الوضوء ، ثم هناك سوق

= الإسلامية : انظر ، الشيباني الإمام محمد بن الحسن الشيباني : الكسب ص٣٢ – ٦٥ تحقيق سهيل زكار دمشق ١٩٨٠ – ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص ٨٢، ٨٣ – ابن الفقيه: البلدان ص١٠٦ ابن رسته : الاعلاق النفيسة – الهمداني : صفة جزيرة العرب – ناصر خسرو : ص٤٠ – الاصطخري : مسالك – المقدسي : المواقيت ص٢٧ – آدم متز : الحضارة ج٢ ص٣٧٤ .

(٢٩) ابن عساكر : ج٢ ص٢٢٦/٢٥٦ – آدم متز : ج٢ ص٣٢٧/٣٦٣ – سعيد عاشور : المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية : ص٢١٩/٢٢٦/٢٢٧ مقال مقدم لتاريخ بلاد الشام ١٩٧٤ .

(٣٠) ابن الأخوة : معالم القربة في أحكام لحسبة : يحيى بن عمر : أحكام السوق – الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة – ابن بسام : نهاية الرتبة في طلب الحسبة . محمد عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية ص٢٥٨ مجلة عالم المعرفة ١٢٨ لسنة ١٩٨٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العدول « المأذونين » لأن العقود كانت تتم بالجوامع ، ثم سوق الكتب ، فالجوامع كانت تقوم بمقام المدارس . ثم تتتابع الأسواق في البعد عن مركز المدينة والجوامع فتبعد أسواق الدباغين والصباغين والسراجين والحدادين عن المنازل ، حرصاً على راحة الشعب والسكان وتؤكد لنا المصادر هذا التوجه في مدينة دمشق(٣١) ، أيضاً وتوضح لنا أسماء أبواب المسجد الجامع في دمشق طبيعة توزيع هذه الأسواق وخصائص كل سوق منها . وقد تجمع أصحاب الحرف في أسواق متخصصة ، فأصبح لكل جماعة من الصناع سوق خاصة بهم . وكان التوجه « أن تُجعل لأهل كل صنعة منهم سوق تختص بهم ، وتعرض صناعتهم فيها فإن ذلك لتضادهم أوفق ولصناعتهم أنفق »(٣٢) ، والتخصص في الأسواق وتنظيماتها كانت البدايات الأولى لانتظام ذوي الحرف في هيئات ومنظمات أطلق عليها الأصناف ، وقد تكون ضرورة الفرز بين الحِرَف المختلفة قد أدت إلى إيجاد الأسواق المتخصصة حتى لا تختلط البضائع النفيسة(٣٣) ، بالبضائع الوضيعة .

وكان التخصص هو السائد على الأسواق في مدينة دمشق ، ومن الجدير بالذكر هنا أن هذا التخصص وصل إلى درجة استبعاد أي عمل

---

(٣١) ابن عساكر : ج٢ ص٥٧ – الشيزري : نهاية الرتبة ص١١ – ابن جبير : ص٢٤٢/٢٤٤ .

(٣٢) الشيزري : نهاية الرتبة ص١١ – أبو يعلى : الأحكام السلطانية ص١٥٨ – ناصر خسرو : سفرنامه ص٥٦ – ابن حوقل : صورة الأرض ص١١٤/١٩٥ – ابن عساكر : ج٢ ص٥٧ – صباح إبراهيم الشيخلي : الأصناف في العصر العباسي نشأتها تطورها ص٧٣/٧٤/٧٦ .

(٣٣) الحسن بن عبد الله العباسي (المتوفى بعد ٧٠٩هـ) : آثار الأول في ترتيب الدول ص١٦٥/١٨٩ القاهرة : ١٣٠٥هـ – الطبري : تاريخ الرسل ج٧ ص٦١٠ الأصفهاني : ج٦ ص٦٢ – ابن الأثير : الكامل : ج٧ ص٣٠٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غريب عن المهنة[٣٤] ، وشملت الأسواق ، كما وصفها ابن عساكر ، كل حاجات المجتمع من مأكولات ومنتجات وملابس وغيرها . ومن الملاحظ أن التخصص في هذه الأسواق جعل المسافات بينها بعيدة ، فأسبغ هذا طابعاً معيناً على الحياة العامة في المدينة وطرقها ، وجعل فيها حركة مستمرة ونشيطة ، فالراغب في تأمين حاجاته عليه أن يجوب المدينة طولاً وعرضاً للبحث عن هذه السلع وتأمينها ، فهو لن يجد في السوق الواحد إلا نوعاً واحداً من البضاعة تحددت أسعاره حسب سياسة العرض والطلب ، ودون زيادة في الأسعار أو تدخل من الدولة أو السلطة الحاكمة ، ولهذا فقد وصفت أسواق دمشق بأنها رخيصة في معظم الأوقات ، نظراً لتخصصها وعدم وجود الاحتكار فيها ، بل وسيادة مبدأ المنافسة الشريفة وعرض السلعة الواحدة بحسب جودتها ، وللشاري أن يختار منها ما يناسبه نوعاً وكماً ، فالمنافسة مستمرة والمشتري إذا لم تعجبه السلعة وسعرها انتقل إلى تاجر آخر بسهولة ليجد مبتغاه[٣٥] ، وبالمقابل على الإنسان أن يجوب معظم أسواق دمشق كي يحصل على ما يحتاجه ويضطر للسير طويلاً ليؤمن ما يريده ، ومع الأيام وجدت إلى جانب الأسواق المتخصصة أسواق أخرى جامعة تباع فيها مختلف البضائع والسلع .

ذكر ابن عساكر في مواضع متفرقة من كتابه أسماء أسواق دمشق وسويقاتها وسقائفها وما تحتويه فعد منها[٣٦] « سوق الأبارين ، والأبرين ،

---

(٣٤) سعيد عاشور : أضواء جديدة على ابن عساكر والمجتمع الدمشقي في عصره ص ٢٣٢/٢٣١ كتاب «في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته، دمشق ١٩٧٩ م » .

(٣٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ص١٥٠/١٥١/١٨٠/١٨١ ـ ابن عساكر : ج٢ ص٢٢٩ ياقوت : معجم ج٣ ص٦٦ سعيد عاشور : المرجع السابق ص٢٣٢ .

(٣٦) ابن عساكر : ج٢ ص٢٢٧/٢٣٠ ـ الفسقار هذا الموقع في سوق مدحت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والأحد والأساكفة العُتُق ، والاطباقيين ، والأكافين ، والبُر ، والبزوريين ، والبقل ، والجلادين ، والحبالين ، والحدادين ، والحذّائين ، والحريميين ، والخالديين ، والخواصين ، وسوق دار البطيخ ، ودرب الحجر ، والدقاقين ، والدقيق ، والرطابين ، والرماحين ، والريحان والزقاقين والسراجين (جعل سوقاً للبر) ، وسوق السلالين والشعير ، وسوق الصرف والصفارين ، والطرائف ، والطريفيين ، والطير ، والعلبيين ، وسوق علي ، والعوامين ، وسوق الغزل ، والفاكهة ، والفسقار ، والقبابين ، والقطانين ، والقلانسيين ، والقمح ، والقناديل ، والسوق الكبير ، والكتانيين ، وسوق اللؤلؤ ، والمطرزين ، والمناخليين ، والنحاسين » .

ومن السويقات سويقة باب البريد ، وباب توما ، والحجامين ، وسويقة كنيسة مريم ، وسويقة الباب الشرقي ، وسويقة الباب الصغير . ومن السقائف سقيفة جناح وابن عمير وسقيفة عند بني عبد الصمد ، وسقيفة القطيعي ، وسقيفة كروس وموقعها في جيرون .

وهذه الأسواق كانت مصدر اعجاب للمؤرخين والرحالة فوصفوها بأنها كانت مراكز تجارية هامة ، تحتوي على صناع مختلفين وتجار يبيعون كل أنواع الحرير كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة وصناعاتها نافقة وتجاراتها رابحة وبضائعها تطلب في كل أسواق الأرض[٣٧] .

= باشا اليوم عند جامع ابن هشام ويفهم مما ذكره ابن عساكر ج٢ ص٢٢٩ أنه يدل على مكان وضع الفسقة وبيعها . والفسقة شراب فيه ماء وخل وكان يشربه الجنود الرومان وقال بدران في هامش ابن عساكر ج١ ص٣١٥ أما سوق الفسقار فاسمه اليوم سوق مدحت باشا : انظر سوفاجييه دمشق الشام ص٤٨ ـ بدور شالمتيا : الأسواق « المدينة الإسلامية » كمبرج ١٩٨٣ والسويقة : هي سوق بدائية صغيرة يشتري سكان الحي منها مايحتاجون إليه عموماً من سلع وأشياء .

(٣٧) الإدريسي : نزهة ص٤٣٩/٤٤٠ ـ ابن جبير : ص٢٤٢ /٢٤٦/٢٦١/٢٦٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبعض الأسواق كان عبارة عن قيسارات كقيسارية الحرير وقيسارية الصيارفة وغيرهما ، أو خانات وفنادق تعمل بتجارة الاستيراد والتصدير وفي جميع هذه الأسواق الكبيرة والصغيرة يلاحظ الازدحام العجيب من مارّين ، وباعة ، ونقالين ، ودلالين ، وحمالين ، ودواب[٣٨] ، وغير ذلك . وقد تركت هذه الأسواق في نفس ابن جبير أثراً جميلاً فقال عنها: «وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وصفاً ...، ولها أيضاً سوق يعرف بالسوق الكبير يتصل من باب الجابية إلى باب شرقي»، وأهم أسواق دمشق كان هذا السوق « الكبير » الذي كان يقسم المدينة إلى قسمين متساويين تقريباً ، واحد في الشمال والآخر في الجنوب . وفي عهد ابن عساكر كانت له أسماء بحسب الأسواق التي كانت تحتله فالقسم الغربي كان يطلق عليه الفسقار ويليه سوق القلانسيين، ثم محلة الخواصين، ثم سوق القمح في البزورية اليوم وما زال في حالة جيدة وتحول إلى مستودع[٣٩] للصابون .

وكان يوجد في هذه الأسواق العديد من المطاهي والمطاعم وكلها في غاية النظافة ، ولهذا كان باستطاعة كل إنسان أن يشتري من السوق ما يريده مطبوخاً[٤٠] ، طبخاً جيداً ونظيفاً ، وكانت أهم المواد الغذائية تباع على امتداد بعض الشوارع الرئيسة كالسوق الكبير ، وفي الأسواق كانت

(٣٨) ابن عساكر : ج٢ ص٥٧/٦٢/٨١/١٣٨/١٥٥/١٥٨/١٦٠/٢٣٩ – سوفاجييه : ص٣٠/٣١ – خالد معاذ : دمشق في أيام ابن عساكر ص١٤٢ (مقال مؤتمر بلاد الشام – دمشق ١٩٧٩) .

(٣٩) ابن عساكر : ج٢ ص٥٧/٦٢/١٣٨/١٥٠/٢٢٨/٢٣٠ – ابن جبير : رحلته ص٢٦١/٢٦٢ – سوفاجييه ص٤٨ .

(٤٠) نقولا زيادة : دمشق في عصر المماليك ص١٠٨ – خالد معاذ : المرجع السابق ص١٤٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تتوزع دكاكين الحلاقين ، التي تميزت بنظافتها وتزويقها ، ودكاكين بائعي المرطبات من جميع الأنواع .

وكانت بعض الأسواق تقام على أبواب المدينة كالأسواق القائمة على باب الجابية ، أي في أماكن التقاء الريف بالمدينة . وكانت التجارة وتبادل السلع تمثل أهم أوجه العلاقة بين المدينة وغوطتها ، فمنذ القديم نشأت علاقة متميزة بين دمشق وغوطتها ، وما برحت الغوطة تأخذ من دمشق وتعطيها ، وكانت دمشق دائماً تتمون بما تنتجه غوطتها ، وكانت المبادلات تتم في الأسواق المحلية واليومية والأسبوعية(٤١) ، وكانت دمشق أيضاً محاطة بمجموعات من البدو تقوم بتبديل منتجات ماشيتها بما تحتاج إليه من الحبوب والسلع المصنعة ، وقد وفر لها وجود البدو على أبوابها منافع جمة من جهة ، ومن جهة أخرى مخاطر مقلقة فكثيراً ما كان هؤلاء البدو يهاجمون المدينة وينهبون خيراتها مستغلين بذلك أوضاعها السياسية الخاصة ، ويساهمون في تدميرها ، وهذا ما عكر أمورها الاقتصادية في كثير من الأحيان ، وهو ما تنبهت إليه السلطات الحاكمة التي تتابعت على دمشق خاصة وبلاد الشام عامة .

الأسواق الموسمية :

كانت الأسواق في دمشق محلية ودائمة ، إضافة إلى أسواق أسبوعية تقام في أيام معينة من الأسبوع كسوق الأحد ، وهناك الأسواق الموسمية أو السنوية ، كتلك التي كانت للعرب قبل الإسلام ثم اضمحلت فيما بعد . وفي العصر الإسلامي اعتاد المسلمون أن يقيموا في أوقات محددة من السنة

(٤١) ابن عساكر : ج٢ ص٢٢٧ : بدور : الأسواق ص١١٢ – سوفاجييه : دمشق الشام ص٢٦/٢٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في المدن التجارية الهامة أسواقاً تجارية وأهمها ما كان يعقد في مناسبات معينة ، ففي مكة وجدة وبيت المقدس ودمشق ، كانت تعقد في مواسم الحج حيث كان يجتمع في هذه المدن الأعداد الكبيرة من تجار الشرق والغرب مع الأقوام الغفيرة القادمة للزيارة والعبادة والحج ، وهذه التجمعات كانت تظاهرات تجارية وأسواقاً نشطة في المناسبات والأعياد(٤٢) ، وهي شبيهة بالمعارض الدولية التجارية .

كما كان هناك أسواق موسمية أخرى تعقد في مواسم ورود التوابل والمنتوجات الشرقية من بلاد الهند والصين إلى أسواق الشام ، وهي تخضع لمواعيد هبوب الرياح الموسمية وتصل في مواعيد سنوية لا تتغير وتنشط بذلك حركة البيع والشراء والمعاملات التجارية بشكل عام .

التجارة الداخلية :

وكان لدمشق علاقات تجارية مع المدن الساحلية(٤٣) ، أمثال طرابلس وبيروت واللاذقية وصور وعكا وغيرها ، والتي كانت تحصل على ما تحتاجه من مواد وسلع تجارية ومصنوعات أخرى من أسواق دمشق العامرة . كما كان لدمشق علاقات تجارية هامة مع شمال بلاد الشام وجنوبه ومدنه الداخلية(٤٤) ، وهكذا قامت حركة تجارية بين دمشق وحلب وحماة

---

(٤٢) ناصر خسرو : ص٥٥/٥٦/٧٢/٧٣/٧٤ – لومبار : الإسلام ص٢٤٩ – حسن إبراهيم حسن : ج٣ ص٣٣٠ Red – Chahnrta: Market In Islamic City .

(٤٣) ابن جبير : ص٢٦٨/٢٦٩ – حسن إبراهيم حسن : تاريخ ج١ ص٣١٣ – محمد جمال سرور : تاريخ الحضارة ص١٤٤ .

(٤٤) ياقوت : معجم ج٣ ص٥٩/٦٠ – دائرة المعارف الإسلامية ص٧٩/١٧٢ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص١٢٧ – ابن جبير : ص٢٦٨/٢٦٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحمص وانطاكية وغيرها من المدن الشامية .

المنشآت التجارية (الفنادق والقياسر) :

وتمركز النشاط التجاري ، فضلاً عن الأسواق العامة ، في منشآت تجارية خاصة ، كانت تقام لخدمة الأغراض التجارية ، واستقبال القوافل التجارية والمسافرين من تجار وغيرهم . وهذه المنشآت كانت عادة تقام ضمن المدينة ، وبعضها يقام في أطراف المدن وخارجها ، وكانت تقوم بوظائف متشابهة ، وسميت بالفنادق وأحياناً بالقيساريات وتارة بالخانات ، وبنيت وفق نظام خاص .

والفندق كلمة (دخيلة) تعود لأصول لاتينية[٤٥] ، وهو يتكون من مبنى كبير من طابقين : الأرضي تعرض فيه السلع والمواد التجارية ، ويخصص الطابق العلوي للنوم ومبيت التجار ، حيث توجد غرف عديدة . ويذكر ناصر خسرو أن الفنادق في طرابلس كانت تتألف من أربع طبقات ، وقد تصل إلى ست . وكانت غرف الفنادق وأبوابه[٤٦] تقفل بأقفال محكمة وخاصة . واشتمل الفندق على حمامات وأفران خاصة بالتجار المقيمين . ولقد ذكر ابن عساكر[٤٧] تسعة فنادق كانت داخل المدينة ، وثلاثة منها خارج دمشق ، وهي فندق سوق البزوريين ، وابن حية في سوق القمح ، وفندق ابن موسى ، وفندق البيع ، وفندق الخشب في سوق البقل، وفندق بالقرب من دار الحرير (لجرير بن عبد الله البجلي الصحابي)،

---

(٤٥) نيكيتا اليسيف : المرجع السابق ص٣٠٤/٣٠٥ ـ آدم متز : ج٢ ص٣٨٠ الريحاوي : المرجع السابق ص٤٧ .

(٤٦) ناصر خسرو : ص٤٧/٥٠ ـ آدم متز : ج٢ ص٣٨١ .

(٤٧) ابن عساكر : ج٢ ص ١٣٥/١٣٨/١٤٣/١٥٥/٢٥٤ .

= الريحاوي : خانات دمشق ص٤٩ مجلة الحوليات العدد ٢٥ سنة ١٩٧٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفندق أبي طاهر الفارقاني ، وفندق ابن العنازة بالقرب من الباب الصغير ، وفندق بني عبد المطلب عند سوق الدواب ، ويذكر أن « أماجو » القائد التركي المعروف أشاد في دمشق فندقاً في العصر العباسي عرف باسمه وكان ذلك سنة ٢٦٤هـ/٨٧٨م[٤٨] . وقد خصّصت هذه الفنادق لنزول التجار ، وخاصة التاجر الركاض[٤٩] : وهو الذي ينتقل من بلد إلى آخر وينقل البضائع من مكان إلى آخر ، ويقيم في كل بلدة مدة يبيع ويشتري . فكان هذا التاجر يجد في هذه الفنادق الراحة والطمأنينة ، ويودع فيها ما معه من أموال ومتاع .

وأما القيسارية : فهي كلمة من أصل يوناني[٥٠] ، وتعني البناء الملكي أو الامبراطوري ، وذلك لأن السوق كان من الأملاك العامة التابعة للدولة . وكانت أبنية كبيرة ، تضم أسواقاً خاصة بمهنة من المهن ، ورد ذكرها منذ العصر الأموي . وكان التجار ينزلون بهذه الأبنية الخاصة المستطيلة الواسعة ، التي كانت تضم اصطبلات ومخازن ، يعلوها طابق أو أكثر يحوي غرفاً ، تنفتح على فناء ، وتتصل ببعضها عبر رواق دائري ، وهذا هو القيسرية (أي السوق الامبراطوري) . وهذه « القياسر » كانت تسمى الفنادق ، وفي بعض الأحيان[٥١] الخانات ، ويتم فيها بيع الانتاج المحلي

(٤٨) أكرم حسن العلبي: خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة ص ٤٧٢ دمشق سنة ١٩٨٩ زيود: المرجع السابق ص ٤٠٧ Ency Clapeoliede/ slamve. II. P 966/

(٤٩) الدمشقي : الإشارة إلى محاسن التجارة ص٥١/٥٢ – الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ص١١٩ Heyd: Histoire Du Commercede Levant aumoqen Age Léipzing (1885 – 1923) PP. 430 – 37 .

(٥٠) دائرة المعارف الإسلامية ج١١ ص٧٠٠ – زيود : المرجع السابق ص٤٠٩/٤١٠ .

(٥١) القفطي : تاريخ الحكماء ص٢٩٨ (ترجمة ابن بطلان) – ياقوت : معجم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والأجنبي الوارد إليها من الغرب والشرق[٥٢] . ومن أهم القيساريات القيسارية الفخرية ، وقيسارية البز ، وقيسارية القواسين قبلي[٥٣] الجامع الأموي ، وهي التي بني خان الحرير على انقاضها .

كانت القياسر من حيث وظيفتها محطات لنزول المسافرين كالفنادق والخانات . فليس بينهما اختلاف ظاهر من حيث المهمة ، فهي تتضمن جميع المنشآت الخاصة بالتجارة من مكاتب وغيرها . وأهم القيسارات في دمشق التي ذكرها ابن عساكر وغيره هي : قيسارية الحرير ، وقيسارية الصيارفة ، وقيسارية الفراء ، وقيسارية القواسين ، والقيسارية الفخرية ، وقيسارية الفروش ، وقيسارية السلطان ، والجعفري ، واللبان ، والوزير وغيرها[٥٤] ، وهناك قيسارية سوق القناديل ، وسميت كذلك ، لأنها إذا ما حل الليل أوقدت المصابيح الزجاجية فيها وغدت مضاءة بهذه المصابيح ، فترى ليلاً وكأنها في منتصف النهار . وقيل إن عدد المصابيح التي توقد فيها كل ليلة ثلاثون ألف مصباح . ويصف ابن جبير[٥٥] القيساريات ، في معرض حديثه عن دمشق، وأسواقها فيقول: «وهي مرتفعات كأنها الفنادق، مثقفة كلها بأبواب حديد، كأنها أبواب القصور، وكل

= البلدان ج٤ ص٢٧٧ – ابن العديم : زبدة ج١ ص٢٧٨ – ابن الأثير : الكامل ج١٠ ص٢٧٧ – المقريزي : الخطط ج٢ ص٧٦ .

(٥٢) خسرو : ص٤٧/٥٠ – ابن جبير : ص٢٦١/٢٦٢ .

(٥٣) أكرم حسن العلبي : خطط دمشق ص٤٧٢ – فؤاد يحي : المرجع السابق ص٦٩/٧٠ .

(٥٤) ابن عساكر : ج٢ ص ٢٥٤ – القفطي : تاريخ الحكماء : ص٢٩٨ – فؤاد يحي : ص٦٩/٧١ – نيكيتا اليسيف : الحياة الاقتصادية في دمشق في عصر ابن عساكر ص٣٠٤/٣٠٥ .

(٥٥) ابن جبير : ص٢٦١/٢٦٢ « والضبة حديدة عريضة يقفل بها الباب »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قيسارية منفردة بضبتها وأغلاقها الجديدة » . واستمر اطلاق الخان والقياسر على المنشآت التجارية ومحطات القوافل حتى ما بعد العصر العثماني ، بينما تضاءل استعمال كلمة فندق بانتهاء العصر الأيوبي[٥٦] .

ويورد ابن عساكر عبارة دار الوكالة ، ويعدّها إحدى الدور العامة في مدينة دمشق ، دون أن يوضح مهامها ووظيفتها ، وذلك على الرغم من أن غيره من المؤرخين والجغرافيين الشاميين لم يذكروا شيئاً من هذا القبيل . ويبدو أن الوكالة اسم للخان في الأعراف المصرية يقابلها ما أطلق عليه الشاميون اسم (قيسارية) أو (فندق)[٥٧] .

ومن المعروف أن دمشق اشتهرت بأسواقها وخاناتها ، التي ادهشت الرحالة ولفتت انتباههم . ولهذا كثيراً ما تحدثوا عنها[٥٨] وسجلوها في مذكراتهم . وتعدّ إشارة البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م في وصفه لأحد الثغور الشامية من انطاكية « وكانت منازلها[٥٩] كالخانات » من أقدم ما تم العثور عليه من استعمال للفظ الخان في المصادر العربية . وفي الوقت الذي ذكر فيه ابن عساكر عدداً غير قليل من الفنادق والقياسر الموجودة في دمشق ، لم يتحدث عن الخانات ، في حين أن ابن جبير ، الذي زار دمشق في سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م أي بعد وفاة ابن عساكر بتسع سنوات فقط (٥٧١هـ/١١٧٥م) ، استعمل كثيراً في وصفه للمنطقة كلمة خان ،

---

(٥٦) الريحاوي : خانات دمشق ص٤٨ ــ فؤاد يحيى : جرد أثري : ص٦٨/٧٠ .

(٥٧) ابن عساكر : ج٢ ق١ ص١٤٣/١٤٤ ــ ابن بطلان : « المختار بن الحسن بن عبدون في تاريخ الحكماء للقفطي » ص٢٩٨ .

(٥٨) صلاح الدين المنجد : خطط دمشق ص٤١ وما بعدها ــ مجلة المشرق عام ١٩٤٨/١٩٤٩ بيروت ــ خالد معاذ : في أيام ابن عساكر ص١٤٢ .

(٥٩) البلاذري : فتوح ص١٧٠ ــ فتحي عثمان : الحدود ص٢٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويورد أنها محطات للقوافل ، وكان قد نزل ببعضها ، كالخان الذي استراح فيه بين دمشق وحمص « خان السلطان » ، وهو المعروف اليوم بخان العروس(٦٠) ، وذكر غيره أيضاً . وقد أطلق ابن جبير على المنشآت المشابهة لهذه الخانات والمشادة في المدن اسم القيسارية تارة ، وأحياناً أخرى الفندق ، وفيها كانت تتوفر المياه اللازمة للشرب ، فلا يعقل أن تكون هذه الخانات قد بنيت فجأة على هذه الطرق التجارية ، بل من المؤكد أنها كانت موجودة قبل هذه الفترة بكثير . لكن لا بد من القول أن لفظ فندق استعمل كثيراً للدلالة على الخان ، وكثيراً ما ذكرته المصادر تارة بالفنادق وتارة أخرى بالخانات(٦١) . وتجدر الإشارة إلى أنه كان للخانات استعمالات كثيرة ووظائف متعددة ، منها الوظائف العسكرية . فقد استمرت الخانات مراكز عسكرية حتى أقام السلاجقة محطات خاصة للجيش ، وتركت الخانات للقوافل ، إلا في حالات الضرورة القصوى . كما كان لها وظيفة بريدية ، لذلك كانت تزود بأبراج للتنوير والحمام وغير ذلك . ومن وظائفها الوظيفة الفندقية ، أو السفرية ، وهما من أهم وظائفها ، فضلاً عن الوظيفة التجارية ، فقد كانت أكثر الخانات مزودة بمخازن ودكاكين تجارية(٦٢) ، وبعضها بأسواق مقامة خارج الخان ، وأما في المدن فإن القيساريات كانت متخصصة بالتجارة والصناعة .

---

(٦٠) ابن جبير : ص٢٤٧ – ٢٧٨ – ٢٣٢ – سعيد عاشور : المجتمع الشامي ص٢٧٧ .

(٦١) القفطي : تاريخ الحكماء ص٢٩٨ (ترجمة ابن بطلان المختار بن الحسن بن عبدون) – ياقوت : معجم ج٤ ص٢٧٧-المقريزي : الخطط ج٢ ص٨٦ .

(٦٢) الإمام ابن المبرد جمال الدين يوسف بن عبد الهادي المقدسي : تحقيق صلاح محمدالخيمي ص٨١/٦١ دار ابن كثير دمشق ١٩٨٨-أكرم العلبي : المرجع السابق ص٤٧٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النقود :

استعمل العرب النقود الذهبية البيزنطية في غرب الدولة العربية الإسلامية ، والدراهم الفضية الساسانية في شرقها ، حتى زمن عبد الملك بن مروان ، أول من ضرب الدنانير والدراهم العربية(٦٣) . وقد سميت الدنانير التي ضربها عبد الملك بالدمشقية ، وكان دينار عبد الملك ذهباً خالصاً ، ووزنه اثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة بالشامي . وتمكن الدينار الجديد من منافسة الدنانير البيزنطية في المعاملات المالية والتجارية في القسمين الشرقي والغربي للبحر المتوسط ، ووصلت المنافسة إلى أوربا الغربية(٦٤) . وفي العصر العباسي انتقل صك النقود إلى بغداد ، فضرب العباسيون ابتداء من عام ١٨٠هـ/٧٩٦م نقوداً في كل من الرافقة وقنسرين وحلب ودمشق والرملة . كما صك الطولونيون والأخشيديون نقودهم في المدن الهامة في بلاد الشام وعلى رأسها مدينة دمشق(٦٥) . وأهم الدنانير ، التي استعملت في مصر والشام حتى العصر الفاطمي ، دينار الراضي الخليفة العباسي ، ثم الدينار الأبيض ، الذي كان متداولاً في العصر الأموي .

---

(٦٣) البلاذري : فتوح ص١٠ ـ الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣١٦ القاهرة ١٩٦٠ ـ المقريزي : كتاب النقود ص٢٦ (وهناك من يذكر أن النقود ضربت سنة ٧٣هـ وهي في زمن عبد الملك أيضاً) انظر : حوليات دائرة الآثار العامة الأردنية الحولية ٤ ، ٥ سنة ١٩٦٠ عمان ـ ابن قتيبة : المعارف ص٢٤١ ـ قدامة بن جعفر : ص٥٩ « وهناك إشارات لضرب الدراهم ابتداء من العصر الراشدي » .

(٦٤) الجاحظ : التبصر ص١٤ ـ حسن إبراهيم حسن : تاريخ ج١ ص٣٣٠/٣٣١ .

(٦٥) الطبري : ج٨ ص٢٦٢ ـ المقريزي : الخطط ج٢ ص٣/٦/٧٤/٧٥ وج١ ص٢٩٨ـ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية : ص٢٩١ ـ شما : ص/٥٦٦ ـ زيود : ٥٦٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واستعملت الدراهم الفضية في دمشق في المعاملات التجارية . وكان الصيارفة يقومون بتحويل هذه العملات ، وتسهيل عملية استخدامها والتعامل بها . فقد وجدت في بلاد الشام ، ودمشق خاصة ، أسواق للصيرفة والصرافة ، وتولى هؤلاء عملية تبديل النقود من فئة إلى أخرى ، وكانوا يحولون الدنانير إلى دراهم(٦٦) ، وبالعكس .

وقام الصيارفة بتسهيل عملية صرف السفاتج والصكوك والحوالات ، التي استخدمت كثيراً في التجارة في معظم المدن العربية ، فانتشرت هذه الوسائل المأمونة ، وكثر الاعتماد عليها كأسلوب مرن في التجارة ، وشاع استخدامها بين أفراد الشعب ، وأصبحت تسحب على التجار ، فضلاً عن الصرافين لتكون الأموال(٦٧) بذلك مأمونة من المصادرة والسلب والسرقة ، ومأمونة من الضياع خفيفة الحمل قليلة التكاليف ، وكانت هذه السفاتج والصكوك قابلة للصرف خارج حدود الدولة العربية الإسلامية بواسطة شركات مصرفية وائتمانية زادت فعاليتها عبر العصور ، وساعدت على الازدهار التجاري .

الموازين والمكاييل :

تدخل الموازين والمكاييل في أصول المعاملات والشراء وتضاربت

---

(٦٦) ابن عساكر : ج٢ ص٢٢٨/٢٢٩ – ناجي معروف وعبد العزيز الدوري : موجز تاريخ الحضارة العربية ص٧٤ بغداد ١٩٤٨ .

(٦٧) الثعالبي : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (القاهرة ١٩٠٨)
– السرخسي : كتاب المبسوط ج١٤ ص٣٧ مطبعة السعادة القاهرة (١٣٢٤هـ) .
– التنوخي : جامع التواريخ ج٢ ص٣٢ – مسكويه : تجارب الأمم ج١ ص١٤٦
– آدم متز : ج٢ ص٣٧٣ – الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي ص٧١ وتاريخ العراق الاقتصادي ص١٦٣/١٦٩ – زيود : ص٥٩٤/٥٩٥/٦٠١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الآراء بشأنها واختلفت في تسميتها واصطلاحاتها[٦٨]، وأهم الوحدات القياسية: الجريب ، وهو وحدة المساحة الرسمية ، ومساحته تساوي ١٣٦٦,٤١٦ متراً مربعاً ، ثم القفيز ، وهو عشر الجريب ، واستعملا كذلك كمكيالين[٦٩] . فالقفيز أربع ويبات ، وهذه مكوكان ، وكلها مكاييل استعملت في الشام . واستعمل كذلك الذراع ، وطول الذراع الهاشمية ٦١,٦سم ، ويقاس بها البز وغيره من السلع التجارية النسيجية ، واستعملها الناس منذ القديم ، وهي انواع . وتقيس دمشق قماشها بذراع يزيد على ذراع القماش في القاهرة بنصف سدس ذراع ، « وهو قيراطان » . وأما القصبة فهي وحدة للقياس ، ويقول الماوردي إنها تساوي ٣,٦٩٦ متراً .

وأما المكاييل : فقد عرف منها أصناف مختلفة ، وذكر منها منذ عهد الرسول ﷺ ثمانية أصناف رئيسة ، هي « الصاع ، والمدّ والفرق ، والقسط ، والمُدْيُ ، والمختوم ، والقفيز ، والمكوك » . وهذه المكاييل لا تستعمل في جميع أنحاء الدولة العربية الإسلامية ، غير أن أهم ما يستعمل منها في الشام ومصر القفيز ، والمكوك ، والويبة ، فضلاً عن مكاييل أخرى هي الكيلجة ، والأردب وغيرها مما يذكره المقدسي[٧٠] وغيره .

وأما المثقال فقد جعل وحدة الذهب ، وتقرر أن يكون وزن الدينار

---

(٦٨) الشيزري : نهاية الرتبة ص١٤ ـ الماوردي : الأحكام السلطانية ص١٥٢ ـ محمد ضياء الدين الريس : كتاب الخراج ص٢٦٧/٢٢٩ .

(٦٩) الفيروزابادي: القاموس المحيط مادة (جرب) – المقري الفيومي: المصباح المنير مادة (جرب) – المقدسي : ص ١٨١/ ١٨٢ – الماوردي: الأحكام ص ١٥٢/ ١٥٣ – أبو يعلى: الأحكام ص ١٥٧.

(٧٠) القلقشندي : ج٣ ص٤٤٢/وج٢ ص١٤٨ ـ الماوردي : الأحكام ص١٨٦

الشيزري : المصدر السابق ص١٤ وما بعدها ـ الريس : الخراج والنظم المالية ص٢٩٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مثقـالاً واحداً ، أي (٦٥,٥ حبـة) ، أو (٤,٢٥ غراماً) . ويقـول الشيزري بأن المثقال درهم ودانقان ونصف الدانق ، وهو أربعة وعشرون قيراطاً ، وخمسة وثمانون حبة . والدرهم الشامي ستون حبة . وقد اختلف صنج أهل الشام « فالمثقال بشيزر يزيد على مثقال حلب نصف قيراط، ومثقال حماة مثل الشيزري ، ومثقال دمشق يزيد على الشيزري ، ومثقال المعرة مثل الدمشقي »(٧١) .

وأما الرطل ، فهو من الأوزان التي شاعت في ديار العرب ، وقيل إنها اثنتا عشرة أوقية ، والأوقية أربعون درهماً . وللرطل أنواع وأوزان كثيرة في المدن القريبة ، فالدمشقي اثنتا عشرة أوقية ، والأوقية خمسون درهماً ، وبذلك يكون الرطل الدمشقي ستمائة درهم .

وأما المدّ فهو أداة الكيل ، ومدّ الرسول ﷺ قدره رطل ونصف تقريباً(٧٢) . والمدّ مكيال لأهل الشام ، ويسع خمسة عشر مكوكاً ، والمكوك صاع ونصف . وذكر المقدسي أن أهل إيلياء ينفردون بالمدّ ، وهو ثلثا القفيز ، وهذا يقدر باثني عشر صاعاً . وأما مدّ عمان فهو ست كيالج ، والكيلجة نحو صاع ونصف .... وهناك أبحاث كثيرة تناولت هذه الموازين والمكاييل تفصيلاً ، يمكن العودة إليها لمن أراد الاستزادة من المعرفة عنها(٧٣) .

---

(٧١) المقريزي : النقود ص١٠٦/١٠٧ وإغاثة الأمة بكشف الغمة ص٤٩ ـ والأوزان والمقادير ص٥٧/٦٦ ـ الشيزري : ص١٦ ـ المقدسي : ص١٨٢ .

(٧٢) المقدسي : ١٥٧/١٥٨/١٥٩ ـ آدم متز : ج٢ ص٤١٢ ـ جمال سرور : المرجع السابق ص١٤٤ ـ الشيزري : نهاية الرتبة ص١٦ ـ المقريزي : النقود ص١٠٦/١٠٧ .

(٧٣) انظر المصادر التي وردت في هذه الفقرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الخاتمة :

لقد حافظت دمشق على مكانتها الاقتصادية عبر العصور . فعلى الرغم من النكبات الكبيرة والكثيرة ، التي كانت تتعرض لها بين الحين والآخر ، بفعل عوامل خارجة عن إرادتها ، فإنها سرعان ما كانت تنهض من كبوتها بفعل عزيمة الرجال ، وتعيد ما خسرته في زمن قياسي . ولقد لاحظنا أن الحكام أهملوا نسبياً الحفاظ على دمشق وغوطتها ، ولاحظنا أيضاً اختفاء بعض الصناعات ، كلياً أو جزئياً ، لعوامل كثيرة ، منها عدم الحاجة إليها ، لكن التفوق كان يسير باتجاه آخر لإيجاد صناعات مبتكرة تناسب التطور الحضاري الجديد وتلبي حاجات الحياة . وهكذا كانت دمشق تنهض دوماً باتجاهات جديدة . وأما ما يميز دمشق وشعبها عبر مراحل التاريخ ، فهو الجد والنشاط ، والنظر الثاقب ، والتقدم المستمر ، والقدرة الفائقة على النهوض ، والتغلب على الصعاب ، والمرونة المتناهية ، والتكيف مع الواقع ، والانتقال من الأوضاع المعقدة السيئة إلى الأوضاع المرنة المتحضرة ، بطريقة لافتة للانتباه ، ومثيرة للإعجاب بهذا الشعب وتفوقه تفوقاً مدهشاً ، ولا سيما في التجارة ومتطلباتها التقنية والفنية والخلقية . وهذا ما يفسر حيوية هذا الشعب المعطاء وتقدمه الاقتصادي . وبالجملة يمكن أن نقول إن دمشق مصر الشام ، وإن التاجر الدمشقي عبر العصور أحسن وأفضل تجار العالم كياسة ولباقة وسلوكاً ، فالدمشقيون ، إذا ما عملوا في التجارة ، غدوا في الصف الأول بين تجار الأقطار المجاورة ، وإذا ما اشتغلوا في الصناعة سبقوا غيرهم وأتقنوا عملهم[٧٤] . ولهذا حظيت دمشق بمركز اقتصادي مرموق ، وشغلت دور الوسيط التجاري بين الغرب والشرق ،

---

(٧٤) القزويني : آثار ص١٩١ ـ ابن جبير : ص٢٣٤/٢٥٥ ـ آدم متز : ج٢ ص٣٧٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهيأ لها موقعها فرصة التحكم بالتجارات الذاهبة إلى آسية والمارة بها . ومما يؤكد ذلك الضرائب والمكوس على التجارة الذاهبة إلى آسيا والقادمة منها لمختلف عناصر التجار ومواطنهم . ونظراً لأهمية دمشق ، وأسواقها ، وما تمتعت به ، فقد كانت محل اهتمام المؤرخين والرحالة في مختلف العصور ، فوصفوها بكثرة المواد الزراعية والصناعية ، وقالوا إنه لا يمكن تصور شيء غير موجود فيها ، وأسواقها ومتاجرها مدعاة لإدخال البهجة والمتعة إلى النفوس ، وتجمع فيها الناس من جميع الأقطار لتبادل السلع والحصول على المصنوعات الدمشقية المتنوعة من سكر جيد ، وسيوف حادة مشهورة ، ومنسوجات قطنية وحريرية رائعة ، وزجاج مطلي بالمينا ، والزخارف المصنوعة من الحديد والخشب ، والورق الجيد والصابون ، وماء الورد والزهر المشهور[٧٥] والشموع ، ومصنوعات الذهب والفضة ، ومصكوكاتهما المتنوعة الأخاذة ، علاوة على ما حوته مخازنها من بضائع مستوردة من أحجار كريمة وجواهر ، وأنواع الأفاويه التي تأتيها من الشرق ، خاصة من بلاد الهند ، وغير ذلك من سلع نادرة لا يمكن لأي إنسان أن يقاوم شراءها ، والاحتفاظ بنقوده ، حتى لو كان يخفيها في قصبة رجله .

(٧٥) ابن عساكر : ج٢ ص٢٢٨ – الإدريسي : ص٣٦٩ – المقدسي : ١٥٦/١٥٧ – ١٨٠ – ياقوت : ج٢ ص٤٦٣/٤٦٥ – سوفاجييه : ص٦/٨/٢٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net